المجد للذكرى الـ 106 لثورة أكتوبر العظمى... قاطرة قرن قصير وعاصف !

د.صالح ياسر

تمر على البشرية هذه الأيام **الذكرى الـ 106** لقيام **ثورة أكتوبر العظمى** في روسيا القيصرية، تلك الثورة التي **غيّرت** مجرى التأريخ العالمي. وكما أشارت وثيقة: (***خيارنا الاشتراكي: دروس من بعض التجارب الاشتراكية***) التي اقرها المؤتمر الوطني الثامن للحزب الشيوعي العراقي (آيار 2007)، فقد **جاءت ثورة أكتوبر تعبيراً عن تفجّر تناقضات الرأسمالية في إحدى اضعف حلقاتها**. وهي، خلافاً لما يدعيه البعض، **ثورة حقيقة** انطلقت من أعماق المجتمع الروسي بمشاركة واسعة من جماهير الفلاحين المسحوقة في الريف والطبقة العاملة النشيطة في المدن وأقسام واسعة من الفئات الوسطى الحضرية. وقد **سبق** الانتصار الحاسم للثورة، مجابهات وانتفاضات عنفية ولاعنفية ضد السلطة القيصرية الاستبدادية وضد طغيان الاقطاعيين وكبار الملاكين.
وشملت تلك النشاطات الثورية الريف والمدن الكبرى حيث المحتشدات العمالية، وانبثقت من رحمها مجالس العمال والفلاحين والجنود (السوفيتات) التي كانت تعبيراً مؤسسياً مبتكراً جسّد الديمقراطية المباشرة. واعتبرها **لينين** شكل ديكتاتورية البروليتاريا الخاص بروسيا. واستطاع حزب البلاشفة، بسياسته الثورية الحازمة ونشاطه التنظيمي الواسع والفاعل، أن يتصدر الحركة الثورية ويجمع روافدها في تيار واحد، وان يقودها إلى الانتصار الكبير في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1917.

بداية، لا بد من الإشارة الى انه لا يمكن فهم التطورات اللاحقة في روسيا القيصرية بدون فهم **الانعطاف الكبير** الذي دشنته ثورة **1905 – 1907** بالرغم من عدم تمكنها من إنجاز الهدف الاستراتيجي الماثل آنذاك – الإطاحة بالنظام القيصري. لقد كانت تلك الثورة، الناجمة عن الظروف الملموسة لتطور روسيا التاريخي في مستهل القرن العشرين، ثورة فريدة ولا شك، بيد أن تفردها لا يجردها من تلك الملامح التي تكررت مرارا فيما بعد. وليست خبرة هذه الثورة واستيعاب فحواها وقفاً على تاريخ روسيا في بداية القرن العشرين. فالتوجه الى دراسة هذه التجربة يوفر الإمكانية لفهم العمليات التالية بمزيد من العمق وصياغة تكتيكات صائبة تساهم في بلورة حلول سليمة للمهمات الاجتماعية والسياسية الناضجة.

نعود الى ثورة اكتوبر 1917. كما هو معروف، فقد **سبق** الانتصار الحاسم للثورة بقيادة حزب البلاشفة، **مجابهات وانتفاضات عنفية ولا عنفية** ضد السلطة القيصرية الاستبدادية وضد طغيان الإقطاعيين وكبار الملاكين.

ففي خريف عام 1915 حدث **نهوض ثوري** في روسيا وراح يتنامى بسرعة، فبعد عام أضرب في العاصمة **بيتروغراد** 150 ألف عامل. **واتخذت** الاضرابات **طابعا سياسيا شديد الوضوح**، كما أن هذه **الإضرابات** جرت بقيادة المنظمات الحزبية البلشفية. **وتطورت هذه الأحداث لتتخذ طابع الإضراب السياسي العام الذي اتخذ طابعا شعبيا عاما وشمل المزيد من الأنصار والمؤيدين في قطاعات عديدة.**

ومن جهتها فقد **اشتدت الحركة الفلاحية** وتجذّر طابعها، الأمر الذي **دفع** الحكومة الى أن ترسل قواتها الى الريف عشرات المرات خلال عام 1916 فقط لتقوم بمداهمة القرى التي ثارت ضد نير الإقطاعيين والمصادرات الحربية.

وشملت تلك النشاطات الثورية الريف والمدن الكبرى حيث المحتشدات العمالية، **وانبثقت** من رحمها **مجالس العمال والفلاحين والجنود** (**السوفيتات**) التي كانت **تعبيراً مؤسسياً** مبتكراً **جسّد** الديمقراطية المباشرة. واعتبرها لينين **شكل ديكتاتورية البروليتاريا الخاص بروسيا**.

والى جانب ذلك وبالتوازي معه، تركت **الحرب الإمبريالية الأولى** (**1914 – 1918**) بصماتها على الاوضاع في روسيا. **فقد أدت** مشاركة روسيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى الى النتائج التالية:

- **مفاقمة** التناقضات الاجتماعية – الاقتصادية والقومية والسياسية في البلاد.
- **وتسببت** الحرب في **تدهور** الصناعة **فتعطل في سنوات الحرب** أربعة آلاف **مصنع كبير من اصل** حوالي العشرة آلاف، هذا اضافة الى حدوث **أزمة** عميقة في النقل والوقود.
- **وأدت** الى المجاعة بسبب **تفاقم** الأزمة التي كانت تطول القطاع الزراعي والريف الذي لم يعد قادرا آنذاك على إطعام المدينة والجيش. علما بأن هذا **الجيش** الذي كان يقوده جنرالات غير أكفاء قد تكبد خسائر كبرى.

وانعكست هذه التطورات في المدينة والريف على **الجيش والقوات المسلحة عموما**. فقد **اشتدّت النزعة الثورية** لدى الجنود والبحارة بشكل عاصف وخصوصا في الجبهة الشمالية وأسطول البلطيق المرتبطين ببتروغراد.

كما **ساهم** النضال الوطني التحرري الذي اتخذ أحيانا في **آسيا الوسطى وكازاخستان** شكل انتفاضات مسلحة بقسط كبير في النهوض الثوري.

عام الحريق الثوري الكبير !

في **بداية** عام **1917**، كان ما يقارب **16** مليون نسمة يخدمون في الجيش، مما **أدى** الى **نقص** الأيدي العاملة في الريف، فظلّ زهاء **3/1** اسر الفلاحين بلا رجال، **وتناقص** محصول الحبوب الرئيسية بشكل كبير مقارنة مع فترة ما قبل الحرب، كما **تقلصت** مساحة الأرض المزروعة. وبالمقابل **تفاقمت المديونية الخارجية** لروسيا مما أدى الى زيادة تبعيتها المالية للدول الأجنبية.

وفي بداية عام 1917 بلغ **التدهور** الاقتصادي درجة لم تستطع معها الوسائل العادية لتنظيم الاقتصاد الموجودة في حوزة الدولة الرأسمالية، أن **تنقذ** البلاد من العلّة المزمنة التي أصيبت بها. ولم تكن هناك من وسيلة لإنقاذ روسيا من الكارثة الاقتصادية المحدقة سوى **إجراءات ثورية حازمة** تناهض تسلط رأس المال والملكية الخاصة.

ولم يستطع أحد أن يقود الجماهير الرازحة تحت وطأة الاستغلال والتي هبت للإطاحة بحكم الملكية المطلقة، سوى **البروليتاريا** الروسية التي **صقلتها** المعارك الطبقية بقيادة حزبها البلشفي. لقد كانت الطبقة العاملة في روسيا من اكثر الطبقات ثورية في العالم حتى في احلك ظروف الحرب، فلم

يكن هناك من يدانيها في الحركة العمالية من حيث ثراء الخبرة في النضال في مختلف الظروف السياسية. ولما كانت هي اكثر الطبقات مبدئية وثورية، فقد لعبت **الدور القيادي** بين كل القوى المناهضة للقيصرية والرأسمالية.

وفي **بداية** هذا **العام (1917) تنامى هجوم القوى الثورية الديمقراطية بشكل واضح.** ففي **كانون الثاني/يناير** تجاوز عدد المضربين أعلى أرقام سنوات الحرب ليصل الى ما يقارب **300 ألف شخص**. وفي **14 شباط** 1917 كانت طوابير المتظاهرين تسير وسط العاصمة وهي تحمل **شعارات** : ***تسقط الحرب، عاشت الثورة الروسية الثانية* !.** وبعد عشرة أيام **تجاوز** عدد المضربين في بتروغراد وحدها **300 ألف شخص**. وفي **25 شباط** أصبح إضراب عمال العاصمة عاما وبدأت الاشتباكات مع قوات الشرطة القيصرية.

وقد كان **أحد المصادر الرئيسية لقوة البروليتاريا في روسيا وجود حليف لها تمثل في فقراء الفلاحين**. كما كانت الطبقة العاملة تمتلك **دعامة** جماهيرية واسعة بين صفوف **الفئات الكادحة غير البروليتارية في المدن** أيضا. فبحلول عام **1917** كان اكثر من **22** مليون شخص من سكان المدن، **يشكل** الحرفيون والتجار والموظفون الصغار نسبة كبيرة منها. وكان معظمهم يتعرض للاستغلال ولم تكن حياتهم سهلة وهينة على أية حال.

روسيا على طريق الثورة البرجوازية الديمقراطية

كانت **الأزمة الثورية تنضج بوتيرة سريعة** وعمّت حركة الإضرابات أهم مناطق البلاد الصناعية. كما ظهرت بوادر التمرد الثوري في صفوف الجيش. **هكذا كان الوضع السياسي في روسيا قبيل ثورة شباط 1917.**

في شباط 1917 إندلعت في روسيا **الثورة البرجوازية الديمقراطية**، التي دخلت التاريخ كأول ثورة شعبية مظفرة في عهد الامبريالية، مؤججة عمليات الصراع الطبقي التي ادت لاحقا الى انتصار ثورة اكتوبر العظمى.

وفي اليوم التالي بدأ الإضراب السياسي العام يتحول الى انتفاضة مسلحة. وفي هذا اليوم **أطلقت** قوات الشرطة النار على المتظاهرين مما أسفر عن مصرع العشرات. ورغم تأكيد قوات الشرطة على عودة النظام والهدوء الى العاصمة فقد أدى هذا العمل الى **إثارة** مقاومة قسم من قوات حامية بتروغراد، وباتت وحداتها تنتقل الى جانب الثورة. وفي مساء **27 شباط** انظم الى الجماهير الثائرة **60 ألف جندي**. وفي مساء اليوم ذاته أصبحت العاصمة كلها عمليا في أيدي الثوار.

كان لدى الملكية في تلك الأيام قوى فعلية للصراع، هي الجنرالات والضباط الرجعيون والبوليس والدرك. وحضي القيصر **بتأييد الإقطاعيين وقمة البرجوازية التجارية الصناعية**. غير أن **تناسب القوى الطبقية** لم يدع له فرصة الاحتفاظ بالسلطة، ولم يكن بإمكان الحكم الاستبدادي أن **يخمد** الثورة وأن يخفف مداها بأية إصلاحات.

وفي يوم **27 شباط/فبراير**، تشكلت من ممثلي الأحزاب والتكتلات البرجوازية لجنة مؤقتة لمجلس الدوما، استمرت في محاولاتها لإنقاذ الملكية. وعندما اتضح نهائيا أن على مجلس الدوما أما أن ينحاز الى الثورة وأما أن يقضي على نفسه بالهلاك مع الحكم الاستبدادي، أعلن رئيسه قرار اللجنة المؤقتة القاضي بالاضطلاع بتشكيل الحكومة، خوفا من أن يعلن سوفيت بتروغراد نفسه سلطة جديدة.

من المعلوم أن حركة الجماهير كانت قوية الى حد أنها **امتلكت** بنية تنظيمية خاصة بها، تمثلت بمجالس (سوفيتات) مندوبي العمال والجنود والفلاحين يسندها **حراس حُمر مدججون بالسلاح**. وهكذا شهدت روسيا منذ شباط 1917 **نظام ازدواجية سلطة فعلية**. ففي وجه الحكومة المؤقتة التي تقف على رأس جهاز دولة برجوازية في حالة **تفكك بطيء** كان هناك **شبكة من السوفيتات** تبني سلطة دولة عمالية يوما بعد يوم.

ولكن عندما **اندلعت** ثورة شباط وتم الإطاحة بالحكم القيصري وصعد تحالف الاشتراكيين الثوريين والمناشفة بقيادة **الجنرال كيرنسكي** إلى السلطة، فإنه بدلا من أن **تسعى** تلك الحكومة إلى تحقيق السلام وتوفير الخبز لأبناء وبنات روسيا، سعت إلى **الاستمرار** بسياسة الحرب وبقيت **تتمسك** بالأحلاف العسكرية.

وهكذا **خابت مجددا آمال الملايين من الجنود** الروس الرابضين على جبهات القتال تحت رحمة المدافع وشبح الموت والمرض والجوع، **وخاب** أملهم في **تحقيق** الصُلح وذلك **بذريعة** الدفاع عن الوطن ومقدسات الأمة الروسية !.

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع على اشده بين **الضواري** الاستعمارية المتصارعة من أجل **حصص** البرجوازية في كل من البلدان المتحاربة من المستعمرات لاعادة تقسيم العالم وفق المصالح العليا للقوى الظافرة في تلك الحرب المجنونة، وعندما كانت مختلف الحكومات البرجوازية المتحاربة مصممة على مواصلة الحرب وإلحاق المزيد من الدمار والأذى بشعوبها وكل شعوب العالم الأخرى، **قرر** البلاشفة بقيادة **(لينين)** صد بربرية الأنظمة الرأسمالية وحربها الوحشية **وإسقاط** حكومة الحرب التي كان يقودها **كيرنسكي** ليحل محلها حكومة العمال والفلاحين الثورية. وعلى هذا الطريق قاموا **بتجميع** القوى **ونظموا** صفوف الجماهير من جديد، **ودعوا** الطبقات الثورية داخل المجتمع الروسي للالتفاف حول البرنامج الثوري للحزب البلشفي.

ما العمل لتحقيق الهدف الاستراتيجي !

يساعد تحليل هذه التجربة والخبرة التي تراكمت على فهم جوهر التكتيكات المستخدمة آنذاك لتطوير الثورة وترقيتها والتغلب على الصعوبات العملية التي واجهتها أثناء تحشيد القوى وزجها في معارك متواصلة لتحقيق الهدف الاستراتيجي.

لنعاين كيف جرت التطورات.

في 25 شباط أصدرت لجنة بطرسبورغ لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا (البلاشفة) منشورا جاء فيه " **إن أمامنا فترة من الكفاح، ولكن النصر المحقق لنا ! على الجميع الانضواء تحت**

راية الثورة الحمراء.... كل أراضى الملاكين العقاريين للشعب ! تسقط الحرب ! تحيا الاخوة بين عمال العالم اجمع !" وهكذا **دوّت** كناقوس ضخم **دعوة** البلاشفة للنضال الحازم من اجل الإطاحة بالحكم المطلق. وراح إضراب عمال بتروغراد **يتحول** الى **إضراب عام**، ثم الى **انتفاضة مسلحة** ضد القيصرية.

وفي مساء **27 شباط 1917**، انضم ما يزيد عن **ستين ألفا من جنود حامية بتروغراد** الى جانب العمال. وعمت الانتفاضة في هذا اليوم كل أنحاء بتروغراد تقريبا. وكان هذا اليوم هو **يوم انتصار ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية**.

هكذا، إذن، كان للتاريخ منطقه الخاص. ففي الأول من آذار/مارس تحطمت سلطة الحكومة القيصرية نهائيا. وفي ليلة **8 آذار** وضع آخر حاكم روسي مستبد، ليس بإرادته قطعا، توقيعه على وثيقة التنازل عن العرش. وهكذا **سقطت** الملكية العاجزة عن مقاومة هجوم الثورة، تحت ضربات الجماهير الشعبية.

وفي حديثه عن **تكتيك أيام ثورة شباط** 1917 أشار **(لينين)** انه **التكتيك الثوري الاشتراكى الوحيد الحقيقي**. لقد سقطت الملكية المطلقة التي **استعبدت** روسيا قرونا عديدة. لكنها لم تسقط من تلقاء نفسها كما يؤكد بعض المؤرخين المعاصرين، بل كان من الضروري **إيجاد قوة** تيسر للجماهير **إنجاز** هذه المهمة **وتحويل** وعيها العفوي الى فعل منظم. وكانت **البروليتاريا الروسية بقيادة حزبها البلشفي** هي هذه **القوة** التي حركت الجماهير العريضة نحو النضال حتى تحقيق الهدف ومن دون أي تردد ومهما بلغت الصعوبات. وهكذا **انتصرت** الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا.

وفي التفاصيل، تقررت قضية السلطة في البلاد عبر الصراع بين **ثلاثة معسكرات سياسية كبرى** : **الملكية القيصرية، البرجوازية الليبرالية والقوى الديمقراطية. ودخل** في معسكر الحكم الاستبدادي، الذي كان في حالة أزمة بنيوية عميقة، الإقطاعيون النبلاء وكبار الموظفين البيروقراطيين والضباط.

كان **المعسكر الليبرالي** الذي وقف على رأسه حزب الديمقراطيين الدستوريين (**الكاديت**) **يسعى الى السلطة ليس لإنهاء القيصرية، بل كان له هدف آخر يتمثل في دعم النظام الإقطاعي الرأسمالي بملكية دستورية.** فقد كان من **الملائم** تماما للبرجوازية الروسية **حدوث انقلاب غير واسع في القصر**. ويعني هذا أن **المعسكر الليبرالي كان يأمل، عن طريق استبدال قيصر بأخر، تشكيل حكومة يشارك فيها ممثلوه لتحقيق ثلاثة اهداف مهمة:**

- **السعي للحصول على فرص واسعة لتوظيف رأس المال،**
- **وترك الأراضي في حوزة الإقطاعيين،**
- **والاستمرار بالحرب حتى تتحقق الأهداف الإمبريالية.**

واستنادا الى الملاحظات السابقة يمكن القول بأن **المصالح** الطبقية البرجوازية الروسية كانت **تتناقض** بعمق مع النضال الشعبي من اجل الديمقراطية وضد الحرب، حيث كان هؤلاء الليبراليون **يخشون** التحولات الديمقراطية مثل خشيتهم من الموت. **واستنتج** لينين من الطابع المعادي للثورة

بوضوح، الذي اتخذه مسلك هذا المعسكر، **استحالة إنجاز المهام المنتصبة عن طريق التحالف بين البرجوازية والبروليتاريا**، ومن هنا **احل محل** ذلك **فكرة التحالف بين البروليتاريا والفلاحين**.

أما **المعسكر الديمقراطي** فقد وضع أمامه **مهمات** مغايرة تماما. وقد كانت **شعارات** البلاشفة تدور حول : ***جمهورية ديمقراطية، يوم عمل من ثماني ساعات، مصادرة أراضي الإقطاعيين***. ومن جهة أخرى فقد كان **حزب البلاشفة** هو **الوحيد** الذي **وقف** ضد الحرب العالمية الأولى منذ لحظة انطلاقها، **وربط** موقفه هذا بالإشارة الى أن **المخرج الوحيد من هذه المجزرة هو توجيه كل القوى الديمقراطية والسلاح في كل بلد ضد المسؤولين عن الحرب، أي الملكيّات والبرجوازية الإمبريالية.** ودخل في المعسكر الديمقراطي البروليتاريا والفلاحون، أكثر الطبقات جماهيرية في البلاد، والفئات الوسطى في المدينة والمثقفون الديمقراطيون وبينهم الطلبة.

ازدواجية السلطة.... ما العمل؟

أحدثت ثورة شباط 1917 ديناميكية سياسية جديدة واصطفافات جديدة وتناقضات جديدة تعبر جميعها عن ميزان القوى الجديد. هنا ظهر **ازدواج السلطة** في كل أنحاء روسيا نتيجة للإطاحة بالقيصرية، **وتشابك دكتاتوريتين** لم يشهده التاريخ من قبل:

- **دكتاتورية البرجوازية** ممثلة **بالحكومة المؤقتة ؛**
- **ودكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية** ممثلة **بالسوفيتات**.

جاء **ازدواج** السلطة **ثمرة** أسباب اقتصادية/اجتماعية/سياسية عميقة. ولم يكن هذا بحسب لينين " ***سوى مرحلة انتقالية من تطور الثورة، وعندما تعدت هذه الثورة حد ثورة برجوازية ديمقراطية عادية ولكنها لم تصل بعد الى دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الخالصة*** ".(لينين، **المؤلفات الكاملة، المجلد 31**، ص 155).

كانت **ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية انعطافا كبيرا** في تاريخ البلاد، **حرّك** كل فئات وطبقات المجتمع، **واستهوى** العمل السياسي ملايين لم تكن السياسة في الماضي تخطر لهم ببال

عندما **اندلعت** ثورة شباط كان **لينين** ما يزال في المهجر (في سويسرا). وقد **تطلب** الوضع السياسي الجديد من حزب البلاشفة قضيتين مهمتين:

1. **التقدير الدقيق** للموقف في البلاد.
2. **تحديد استراتيجية وتكتيك البلاشفة** في المرحلة الجديدة.

هنا انطرحت مسألة اختيار التكتيكات الملموسة للتعامل مع الوضع الملموس الجديد.

فكما هو معروف، اعتبر **لينين** أن **اختيار الطبقة العاملة وحزبها هذا الشكل للنضال أو ذاك أهم مسألة للتكتيك**. ولا يمكن حل هذه المسألة مسبقا، في هدوء المكاتب، ولا يعطى الجواب عنها إلا:

- **تطور** الحركة نفسها؛
- **ومراعاة الخبرة** التي كدستها الجماهير؛
- **واخيرا، الظروف الوطنية الملموسة**.

قال **لينين** في حديث مع **وليم بول** أحد مؤسسي الحزب الشيوعي البريطاني **ملخصا** ممارسة المعارك الطبقية الثورية : "***إن ميدان النشاط الكفاحي هو أفضل مكان لاختبار آرائنا النظرية. والاختبار الحقيقي بالنسبة للشيوعي هو فهمه كيف وأين ومتى يحول ماركسيته الى فعل***"(لينين : المؤلفات الكاملة، المجلد 37، موسكو 1970، ص 249).

ولم يكتف **لينين** بهذا التحديد بل أضاف إليه **أطروحة مهمة** أخرى وفحواها ما يلي : " ينبغي لنا أن **نتذكر** أن كل حركة شعبية تتخذ أشكالا متنوعة الى ما لا حد له، صانعة على الدوام أشكالا جديدة، نابذة الأشكال القديمة، محدثة تعديلات أو تركيبات جديدة من الأشكال القديمة والجديدة. وواجبنا أن نشترك بنشاط في هذه الصياغة لأساليب النضال ووسائله " (لينين : **روح المغامرة الثورية**، دار التقدم، موسكو 1975، ص 12).

التحليل الملموس للوضع الملموس

اطروحة: الحلقة الأضعف في السلسلة الإمبريالية

استنادا الى **التحليل اللينيني**، فقد كانت **الامبراطورية الروسية الحلقة الأضعف في السلسلة الإمبريالية ومركزا لتناقضاتها** من جهة، كما أنها كانت في الوقت ذاته **مركزا للحركة التحررية العالمية**. وهنا بالذات **نضجت** الحالة الثورية قبل البلدان الأخرى **وتحولت** الى **ثورة ديمقراطية شعبية عامة.**

في أوائل **نيسان/1917** عاد **لينين** الى الوطن. في "***موضوعات نيسان***" كتب لينين قائلا "***إن الشيء الأصيل في الوضع الراهن في روسيا إنما هو الانتقال من المرحلة الأولى للثورة، التي أعطت الحكم للبرجوازية نتيجة لعدم كفاية الوعي والتنظيم لدى البروليتاريا، الى المرحلة الثانية للثورة، التي يجب أن تعطي الحكم للبروليتاريا، وللفئات الفقيرة من الفلاحين***".

وقد **انطلق** لينين، وهو **يحدد طابع الثورة والقوى المحركة** لها، من أن **الثورة البرجوازية الديمقراطية** في روسيا قد تحققت، وقد **تحالف الفلاحون كافة** مع البروليتاريا لإنجاح الثورة. والآن تم **طرح موضوع الثورة الاشتراكية** على جدول الأعمال، تلك الثورة التي سيشترك فيها **الفلاحون الفقراء** فقط كحلفاء للبروليتاريا حيث انه يجب خوض النضال ليس فقط مع البرجوازية في المدينة بل وفي الريف أيضا.

وإذ **عمّم** لينين **خبرة** الحركة العمالية العالمية **وإبداع** الجماهير الثوري في روسيا فقد اكتشف **شكلا** للتنظيم السياسي للمجتمع في **فترة الانتقال** من الرأسمالية الى الاشتراكية هو **السوفيتات**. وبحسب لينين، تعتبر **جمهورية السوفيتات** من **أسمى** أشكال الدولة الديمقراطية، بالمقارنة مع شكل الجمهورية البرلمانية العادية. وقد أوضح **لينين** أن **جمهورية السوفيتات تخلق للجماهير الشعبية إمكانيات لا حد لها للاشتراك في إدارة الدولة وبناء حياة جديدة**.

وقد وضع لينين في "***موضوعات نيسان***" أمام حزب البلاشفة ليس فقط **المهام السياسية** بل **والاقتصادية** التي **تخدم** الموضوع الرئيسي – **السلطة**، وتسعى الى **إنقاذ** البلاد من الكارثة

الاقتصادية التي كانت البلاد قد اقتربت منها. وقد وضع **لينين** في هذه الموضوعات **خطة محددة على أساس علمي لاستيلاء البروليتاريا على السلطة في روسيا**.

في **24 يوليو/تموز** انتهت مفاوضات الكاديت مع ممثلي الأحزاب الاشتراكية بتشكيل **الحكومة الائتلافية الثانية**. وعلى الفور قامت هذه الحكومة التي أطلق عليها " **حكومة إنقاذ الوطن والثورة** " بتطبيق الإعدام في الجبهة، وأمر رئيس الوزراء (**كيرنسكي**) بمنع صدور ونشر الجرائد البلشفية بين الجنود، كما حضر على الجنود عقد الاجتماعات والمؤتمرات واللقاءات. وهكذا قُضيَّ على ازدواجية السلطة لتتركز كلها في أيدي البرجوازية المعادية للثورة ، وهنا **انتهت الفترة السلمية للثورة**. وشغل **موضوع تكتيك البلاشفة** في ظل الظروف الجديدة مكانا رئيسيا وذلك في أعمال المؤتمر السادس لحزب البلاشفة الذي عقد في الفترة **26 تموز حتى 3 آب** من عام 1917 في بتروغراد.

الانتفاضة المسلحة على الأبواب!

على أساس تحليل ملموس لتطور الأوضاع السريع والعاصف والمحفوف بالمخاطر والاحتمالات المفتوحة، قرر المؤتمر السادس لحزب البلاشفة التوجه الى الانتفاضة المسلحة للإطاحة بالبرجوازية، وأكد في أحد قراراته على التالي : "***لقد اصبح مستحيلا في الوقت الحاضر أن يتم التطور السلمي، وان تنتقل السلطة الى السوفيتات دون صعوبات، حيث أن السلطة انتقلت في حقيقة الأمر الى البرجوازية المعادية للثورة. وليس هناك من شعار سليم يجب أن يطلق في الوقت الحاضر غير شعار القضاء التام على دكتاتورية البرجوازية المعادية للثورة***".

حلّ ميعاد التصاعد الثوري الذي تحدث **(لينين)** عن حتمية حدوثه، أسرع مما كان متوقعا. كان هذا **مرتبطا** بمقاومة تمرد **الجنرال كورنيلوف** المعادي للثورة. فرغم **اشتراك** سبعة وزراء من حزب الكاديت في الحكومة الائتلافية الثانية، ولعبه لدور قيادي فيها، إلا أن **البرجوازية الإمبريالية لم تكن راضية** عن ذلك. **وقررت الإجهاز بضربة واحدة على بقايا الديمقراطية التي اعتبرتها خطرا وبديلا عن سياستها. وقد كانت بحاجة الى دكتاتور، وجدته في شخص الجنرال كورنيلوف القائد العام الأعلى الذي اجتذب برجعيته الدوائر الحاكمة**.

وقد **استطاع البلاشفة وهم ينظمون الجماهير لسحق تمرد كورنيلوف**، أن **يحققوا تكتيكا فريدا** في دعم وحدة العمل، كما استطاعوا **القيام بتشكيل جيش سياسي للثورة الاشتراكية**. وقد **تمكن البلاشفة** في عدة أيام من **مقاومة طغمة كورنيلوف**، أن يحققوا ما كان عسيرا أن يتحقق خلال شهور، لو مضى تطور الثورة في ظروف طبيعية. **وكشف هذا التمرد بشكل واضح إفلاس سياسة التوفيقين**.

في هذه اللحظات **حدث انعطاف فريد** من نوعه. فقد **بدأ الفلاحون والجنود في الابتعاد عن الاشتراكيين الثوريين والتحول الى جانب البلاشفة**. واصبح واضحا انه ليس هناك من سلطة قادرة على **تطوير** الثورة **وتعزيز** مكتسباتها، غير **سلطة العمال والفلاحين الفقراء**.

وفي أواخر آب وأوائل أيلول 1917 وخلال مقاومة تمرد كورنيلوف، ساد البلاد وضع فريد.

- فقد **ظهر ضعف سلطة الحكومة المؤقتة** في المدن والأقاليم، كما **اتضح** سوء سمعتها.
- **وبالمقابل نشطت السوفيتات واللجان**.

في هذه الاثناء ظهرت مرة أخرى إمكانية حقيقية لانتقال السلطة الى السوفيتات سلميا. وقرّر حزب البلاشفة أن **يستفيد** من هذه الإمكانية، حتى **يتفادى** ضحايا لا مبرر لها. وفي هذا الصدد كتب **لينين** قائلا " ... ***في سبيل هذا التطور السلمي للثورة، في سبيله فقط – أي في سبيل إمكانية نادرة الى أقصى حد في التاريخ وثمينة الى أقصى حد، إمكانية نادرة – في سبيلها فقط، برأيي، انه في مستطاع ومن واجب البلاشفة وأنصار الثورة العالمية وأنصار الطرائق الثورية، أن يقدموا على مساومة كهذه*** ". (لينين، **المؤلفات الكاملة**، المجلد 34، ص 134 – 135)

غير أن إمكانية تطوير الثورة سلميا سرعان ما تلاشت، وعاد المناشفة والاشتراكيون – الثوريون الموجودون على رأس السوفيتات الى **التحالف مع البرجوازية**.

واستنادا الى **تحليل** ماركسي عميق للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة، **أدرك لينين بوضوح أن روسيا تقترب اقترابا شديدا من الثورة الاشتراكية التي ستقوم بحل التناقضات المعقدة للمسائل الاجتماعية الملحة**. **وارتبط** تعاظم الأزمة الثورية في البلاد **بتصاعد** ثوري جديد.

وامتدت الأزمة الوطنية العامة في كل أنحاء البلاد.

وكتب **لينين هنا** يقول: (**قانون الثورة الأساسي....، يتلخص فيما يلي:**

- **لا يكفي من اجل الثورة أن تدرك أن الجماهير المستغَلة والمظلومة عدم إمكانية العيش على الطريقة القديمة وان تطالب بتغيرها.**
- **إن من الضروري لأجل الثورة أن يغدو المستثمِرون غير قادرين على العيش والحكم بالطريقة القديمة.**
- **إن الثورة لا يمكن أن تنتصر إلا عندما تمزق " الطبقات الدنيا " عن القديم، وعندما تعجز " الطبقات العليا " عن السير وفق الطريقة القديمة..... ونعني أن الثورة مستحيلة بدون أزمة وطنية عامة تشمل المستثمَرين والمستثمِرين معا**). (لينين، **المؤلفات الكاملة، المجلد 41**، ص 69 – 70).

اثبت لينين، على أساس تحليل عميق للوضع وتطوراته الفعلية، أن الأزمة الوطنية في البلاد قد نضجت وان الظروف المناسبة قد ظهرت لتحويل شعار الإعداد السياسي العام للانتفاظة المسلحة الى شعار الممارسة العملية وذلك في رسالتيه التاريخيتين: "***يجب على البلاشفة أن يأخذوا السلطة*** " و "***الماركسية والانتفاضة*** " وفي مقالة "***نصائح غائب*** ". لقد أكد **لينين جديّة** هذا الشكل النضالي **وخطورته، وحذّر** من التلاعب به. **وربط لينين نجاح الانتفاضة المسلحة، بالإعداد الجيد والشامل لها، حيث يجب لإنجاحها:**

- **حشد قوى تفوق قوى العدو بكثير؛**
- **في المكان الحاسم، واللحظة الحاسمة؛**
- **وإلا أباد العدو المنتفضين.**

كان **25 أكتوبر**، يوم **انتصار** الانتفاضة في بتروغراد، قد **دخل** التاريخ كبداية لثورة أكتوبر العظمى في البلاد التي **فتحت** صفحة جديدة في تاريخ البشرية. **وتوج** الانتصار النهائي في **7 نوفمبر 1917**. ثمة **ملاحظة** ضرورية هنا: الثورة **انتصرت** في شهر نوفمبر عام 1917 حسب التقويم اليولياني -

الميلادي المعروف والمستخدم حاليا ـ لكنها سجلت تاريخيا في شهر أكتوبر لأن التقويم القيصري ـ المعمول به في روسيا في ذلك الوقت ـ كان متأخرا ثلاثة عشر يوما عن التقويم اليولياني، واشتهرت بعد ذلك بثورة أكتوبر.

لقد **استطاع** حزب البلاشفة، **بفضل سياسته الثورية** الحازمة **ونشاطه التنظيمي** الواسع والفاعل، أن **يتصدر** الحركة الثورية **ويجمع** روافدها في تيار واحد، وان **يقودها** إلى الانتصار في السابع من تشرين الثاني 1917.

هل " خان " لينين والبلاشفة ماركس وأطروحاته بشأن استلام السلطة في أكتوبر 1917؟

يطرح العرض التاريخي المكثف السابق **السؤال التالي**: ***هل " خان " لينين والبلاشفة ماركس عندما اتخذوا قرارهم باستلام السلطة، اثر طور قصير مرّت به الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا، رافضين التعامل مع الانتقال الى الاشتراكية باعتباره سيرورة طويلة ؟***

ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر وهو: **كيف يمكن للثورة الاشتراكية أن تنتصر في بلد لا يمتلك، بسبب ضعف تطور الرأسمالية فيه، قاعدة مادية متقدمة لبناء الاشتراكية، وهو الشرط الرئيسي الذي كان ماركس قد وضعه لانتصار الاشتراكية في بلد من البلدان؟**

من هذا السؤال وفي مسعى الإجابة عليه، **انطلق** لينين، **مبرهنا** على **وجود الرأسمالية في روسيا،** التي كان يشكك بوجودها " **الشعبيون** " ومُظهِرا بأن **السمات الخاصة** التي كانت **تميز** هذه الرأسمالية، وبالأخص **سمة ضعفها**، تجعل من إمكانيات انتصار الثورة الاشتراكية فيها اكبر من إمكانات انتصارها في أي بلد آخر من البلدان الرأسمالية المتطورة، **وتتيح** للطبقة العاملة فيها **فرصة التحول** الى **محرك** لهذه الثورة. وكان لينين على قناعة، من جهة أخرى، بأن **الانتصار الحاسم** على القيصرية في روسيا **سينقل** الحريق الثوري في أوربا، **ويرفع** العزيمة الثورية لدى البروليتاريا العالمية **ويختصر** طريقها نحو الانتصار التام.

لم يكن خافياً على لينين ورفاقه بأن روسيا، **لحظة استيلاء البلاشفة على السلطة**، لم تكن تمتلك الشروط المادية لقيام الاشتراكية. فقد تحدث **لينين** في اكثر من موضع عن **تخلف** تطور قوى الإنتاج في روسيا **والطابع** البرجوازي الصغير لرأسماليتها وعدم بلوغ العلاقات الرأسمالية فيها درجة النضج الكافي لإنجاز البناء الاشتراكي. لكن **البلاشفة لم يجدوا في التعارض القائم بين نضج الشرط السياسي (الذاتي) المتمثل باستيلاء الطبقة العاملة وحلفائها على السلطة، وعدم توفر بعض عناصر شرطها الموضوعي، سبباً كافياً في عزوف الطبقة العاملة عن الاستيلاء على السلطة والمضي قدماً على طريق بناء الاشتراكية.**

لعلّ **السند الفكري** الرئيسي لموقف البلاشفة **يكمن** في **التعويل** الواضح، خلال المراحل المبكرة التي أعقبت انتصار الثورة، على **قيام ثورات عمالية ظافرة في البلدان الأوروبية** حيث بلغت فيها الرأسمالية مرحلة متطورة، وبشكل خاص في **ألمانيا**. لذلك **دافع** (لينين) عن **فكرة إمكانية قيام الاشتراكية في بلد واحد والانتقال السريع بالثورة من مرحلتها البرجوازية الديمقراطية إلى المرحلة الاشتراكية**، أي **تطبيق مفهوم الثورة المستمرة** لماركس، في حين **دعا المناشفة وماركسيون**

آخرون إلى **حصر الثورة ضمن افقها البرجوازي الديمقراطي**. قادة آخرون للثورة، منهم **تروتسكي،** ربطوا الانتقال إلى الاشتراكية بقيام ثورات عمالية في البلدان الرأسمالية المتطورة.

على هذا الأساس **قدم** لينين، بحسب الراحل د. **فالح عبد الجبار**، الحل التالي:

الانتقال من الإنتاج الصغير الفردي، المجزأ، المبعثر، **عبر رأسمالية الدولة الى الاشتراكية**.

بتعبير آخر طرح **ضرورة إنجاز مهمة إضفاء الطابع الاجتماعي على الإنتاج**، المهمة التاريخية التي لم تكن الرأسمالية الروسية قد أنجزتها بعد في لحظة استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية. وما طرحه لينين إنما هو **تعجيل** عملية التركز والتمركز.

ولأجل بناء القاعدة المادية، الاقتصادية – الاجتماعية للمجتمع الجديد، قامت السلطة الاشتراكية بتأميم الأرض وإلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. وعمدت إلى **سياسة التصنيع الثقيل** بالتركيز على **خلق** صناعة وسائل الإنتاج **وتوجيه** الفائض الاقتصادي المتولد في الريف لتمويل عملية التصنيع.

وقد **اعتبر** لينين **تنظيم الإنتاج الكبير على أسس رأسمالية الدولة، بمثابة مرحلة انتقالية لمواجهة متطلبات بناء الأساس المادي للاشتراكية، مرحلة يحتّمها ضعف تطور الرأسمالية في روسيا آنذاك**. وكان يدرك أنّ **عملية الانتقال إلى الاشتراكية تتضمن سلسلة طويلة من المحطات والانتقالات** تغطي حقبة تاريخية طويلة نسبياً.

****

رغم **الاختلاف** في **تقييم المآل** الذي آل إليه النظام المنبثق من ثورة أكتوبر، إلا أن هذه الثورة كانت **أحد أهم أحداث القرن العشرين**. فقد تركت بصماتها على **الاتجاهات** الأساسية لتطور عالمنا خلال القرن العشرين الذي انقضى معظمه في ظل القطبية الثنائية للاشتراكية والرأسمالية. لقد كان المؤرخ الماركسي المعروف الراحل **أريك هوبسباوم** محقا حين اختتم آخر أعماله بعنوان مثير: " **عصر التطرفات** "، راسماً صورة **القرن العشرين بأنه قرن أكتوبر**، القرن القصير الذي ابتدأ، برأيه، متأخراً في **1917**، وانتهى مبكراً في **1991**، سنة صعود يلتسن، مثلما أن **القرن التاسع عشر** كان قرن الثورة الفرنسية.

بالمقابل فإنه وقبل **أكثر من** ثلاثة عقود، انهارت الانظمة التي قادتها الاحزاب الشيوعية **والاشتراكية والعمالية** في أوربا الوسطى (المانيا الديمقراطية والمجر) والشرقية (بولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا) والجنوبية (يوغسلافيا وبلغاريا). وتُوجت تلك العملية بتفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار "التجربة الاشتراكية" في الفترة 1990 - 1991.

وبعد انهيار هذه الانظمة بات من الصعب تفادي طائفة واسعة من الاسئلة المتعلقة بمعرفة اسباب وعوامل هذا السقوط وكذلك الافرازات المتفاعلة والمتداخلة المترتبة على ذلك.
ولاشك أن تجربة بهذه الأهمية والدلالة، في بنائها وانهيارها، تطرح أسئلة كثيرة وكبيرة ومفتوحة. وبسبب ذلك فإن أجوبتها لا زالت تحتاج إلى المزيد من البحث والتأصيل والتدقيق.

من المؤكد ان الانهيار الذي حصل هو بحد ذاته حدث كارثي ولكن له ميزة ايجابية هي انه **اسهم** في **دك** اسوار الجمود، مما اعطى دفعا قويا للنقاش والحوار، وفتح الابواب امام انطلاقة كبرى للفكر الماركسي للتجوال في رحاب البحث والتقصي والاستكشاف، حيث يلاحظ المرء هذا الكم الهائل من الدراسات والأبحاث والمناقشات الساخنة والاجتهادات غير المألوفة والاستنتاجات المفاجئة.

وفي ضوء ذلك يتعين أولا وقبل كل شيء تجاوز تلك التحليلات التبسيطية التي ترجع ما حدث من انهيار الى "ردة داخلية" أو الى "مؤامرة خارجية" أو الى "دور رجل خارق استطاع أن يغير مجرى الأحداث" ! لقد كانت هناك في الواقع جملة من المشكلات والعوامل الاساسية وراء الانهيار الذي حصل. والمقاربة الصحيحة لهذه القضية تفترض **الانطلاق** من واقع أن هذه المشكلات نشأت بفعل عوامل اقتصادية وغير اقتصادية، داخلية وخارجية، ذاتية وموضوعية، في اطار عملية تاريخية معقدة ومتناقضة وطويلة المدى. ويفترض التحليل السليم لهذه المشكلات رؤية العوامل المسببة للأزمة والانهيار الذي حصل في هذه البلدان باعتبارها جزءً من سيرورة دايلكتيكية بالغة التعقيد يمكن فهمها واستيعابها عند استخدام المنهج الماركسي في جدليته وتاريخيته.

وعلى الرغم مما بذل من جهد، من اطراف كثيرة، لمحاولة الاجابة على الاسئلة التي طرحها الانهيار، إلا ان النقاش مع ذلك يظل مفتوحا، بل تتزايد الحاجة اليوم في ظل معركة فكرية وصراع طبقي محتدم على مستوى كل بلد وكونية الطابع أيضا، لإعمال العقل الجمعي للتفكير في هذه القضايا التي تتخذ ابعادا واستحقاقات تخص جميع قوى اليسار والديمقراطية بل وكل المناضلين من أجل **بديل يتجاوز الرأسمالية** ولا ينحصر في أفقها أو يخضع لآليات ومنطق ادماجها وهيمنتها.

وكما معلوم، وبرغم مظاهر الأشياء، دخلت الرأسمالية العالمية في مرحلة أزمة بنيوية عميقة منذ أوائل سبعينات القرن العشرين. وأخذت هذه الأزمة في التفاقم المستمر دون أن تبزغ في الأفق أدنى إشارة للخروج منها. والأزمة تضرب النظام الرأسمالي بكليته: مراكزه المتقدمة وتخومه المتخلفة ولا توفر أحدا.

كان من المتصور أن خطورة الأزمة ودوامها وعجز القوى المتنفذة عن مواجهتها، بل وتفاقمها المستمر، أن كل ذلك سيفتح مجالات جديدة لتجديد الأحزاب والقوى اليسارية والديمقراطية الموجودة، وكذلك لتبلور حركات شعبية ديمقراطية وثورية تعطي لليسار فرصا لكسب مواقع أقوى بين الجماهير.

ولكن انهيار نظام "الاشتراكية الفعلية" في كل من الاتحاد السوفيتي وبلدان أوربا الشرقية والوسطى قلب كثيرا من "البداهات" وفتح الأفق على مصراعيه لتحولات تطول الكثير من البرامج والمشاريع والتنظيمات.

فقد جسدت الهزة الكبيرة المتمثلة بطريقة وسرعة الانهيار الذي حدث **جملة من القضايا المتعلقة بطابع الاشتراكية وأفقها**. واقترن الحدث بهجوم إيديولوجي شرس سعى لتشويه الحقائق وتضليل الرأي العام من جهة، وتوظيف الحدث بما يخدم ديمومة الرأسمالية، وهذا ما عبرت عنه شعارات ومفاهيم مثل، نهاية التاريخ/ موت الشيوعية/ وانتهاء عصر الآيديولوجيات/ صدام الحضارات..الخ.

ولاشك أن **تبلور** هذه السمات الجديدة للنظام الرأسمالي العالمي قد **أدى** الى **تأكل** تدريجي لوسائل النضال التقليدية، الأمر الذي طرح ومازال يطرح المزيد من الأعباء والمصاعب أمام تجديد اليسار وقواه المكونة، والتكيف لشروط النضال الجديدة التي أحدثها "الزلزال الكبير" منذ بداية التسعينات من القرن الماضي والطموح الجارف لقوى الرأسمالية المعولمة لابتلاع الجميع وتكييفهم لمنطق الرأسمال وقوانينه.

تسمح الملاحظات السابقة بالاستنتاج بأن التجربة أكدت على ان التخلي عن الخيار الذي دافعت عنه ثورة أكتوبر ضار ومدّمر معاً، لأنه لا يبقي لنا سوى البربرية والحروب الامبريالية وهو ما يتجسد اليوم بشكل فاقع، أو التلويح الدائم بها لإرهاب الخصوم وإجبارهم للخضوع للمنطق الإمبريالي والفقر والجوع والاستقطاب الاجتماعي، والتفكك والتشظي المجتمعي وهيمنة القوى البيروقراطية-الطفيلية – الكومبرادورية – والريعية. وهنا يقبع خطر الردح الذي تعالى بعد الانهيار، والقائم أساساً على شطب هذا الخيار المناهض لرأس المال ومنطقه، لأنه يؤسس لبديل آخر يشكل قطيعة مع الرأسمالية، كنظام وممارسات.

وبغض النظر عن المآل المأساوي للتجربة موضوع حديثنا، فإن البشرية لن تنسى ابداً **أكتوبر العظيم الذي كان نقطة انعطاف جذرية في تاريخ العالم**، والذي سيظل **يوما مضيئا** على الدوام في هذا التاريخ العاصف.

في كتابه (***عشرة أيام هزت العالم***) يقول **جون ريد** الصحفي الأمريكي: " نعم لقد كانت الثورة مغامرة ولكنها إحدى أروع المغامرات التي سبق للإنسانية أن أقدمت عليها، مغامرة اقتحمت التاريخ علي رأس الجماهير الكادحة وراهنت بكل شيء في تحقيق رغباتها الواسعة والبسيطة، ومهما يكن رأي بعض الناس في البلشفية فلا جدال أن الثورة الروسية من أعظم الأحداث في تاريخ البشرية ".

ورغم اللحظات المشوبة بمشاعر مختلطة بين **حلم مؤجل وأمل آت** إلا أن مجرد **استذكار** هذا الحدث الذي غيّر العالم لأكثر من سبعين عاما إنما يعني أن هذه الثورة ومبادئها الكبرى في: **السلم والخبز والأرض** لم تتسربل بالنسيان، فما زال **بيرق** النضال ضد الاستغلال والظلم والعسف يرفرف، رغم كل الضجيج بنهاية التاريخ ونهاية الإيديولوجيا !!

المجد للذكرى الـ 106 لثورة أكتوبر العظمى قاطرة تاريخ القرن العشرين العاصف !